عوائق تقدّم الفنون الجميلة الشعبية فى مصر

للأستاذ أحمد شفيق زاهر بك

الإنسان منذ بدء التاريخ يبدى ميلا ظاهرا إلى التزيين والتجميل ، ورغبة واضحة فى تنميق ممتلكاته . ولم يكن يكفيه أن تؤدى أدوات أكله وأسلحته وسائر حاجياته أغراضها النفعية ، بل كان يعنى بأن تكون هذه الأشياء مصنوعة بطريقة تشبع ميوله الجمالية . والفنون فى أول شأنها لم يكن يقصد بها التسلية ومتعة النظر ، ولكنها نشأت وليدة الغريزة الفنية فى الإنسان . وجاءت نتيجة طبيعية لحياته الخاصة فامتزجت بها وأصبحت جزء منها . ولم يكن يهديه فى أعماله الفنية إلا خبرته ونزعته العملية من غير أن يتأثر بنوع من التقاليد سبقه إليه غيره . على أن عقائده وأوهامه وما كان يراه من مظاهر الطبيعة التى تحيط به ، وما لم يكن يدركه من أسرارها الغامضة — كل ذلك كان مصدر إلهام له فى ابتكاراته المختلفة .

والفنون مظهر من مظاهر تقدّم الشعوب ورقيها ، منها تتبين نوع ثقافتها وحضارتها . وهو قول لا يقصد به تلك الصور والتماثيل التى يخرجها الفنان الحديث لتزيين القاعات وإرضاء النزعات الحديثة المختلفة . ولكن المقصود هو تلك الفنون التى تنشأ عن أساليب الأمة فى المعيشة . فالمساكن والمعابد والملابس والحاجيات هى التى تلقى ضوءا تتبين منه مظاهر التقدم والرقى ونوع الثقافة والتقاليد .

والفنون الشعبية هى التى تصدر عن الشعب نفسه دون أن يكون لفنون شعوب أخرى تأثير مباشر فيها . وهى تصدر منه معبرة عن مزاجه الخاص ووجهات نظره إلى الحياة تنعكس فيها عقائده الدينية وتقاليده الاجتماعية ، كما يظهر فيها تأثير البيئة المحلية وما يتبع ذلك من أساليب المعيشة فى شتى نواحيها . وفى الجملة هى الفنون ذات الطابع القومى التى تميز هذا الشعب أو ذاك عن غيره من الشعوب ، حتى لقد قيل إن الفنون فى إقليم من الأقاليم إذا ما شابهت فنون إقليم آخر كان ذلك دليلا على أن سكان الإقليمين قد انحدروا من جنس بشرى واحد ، غير أن الأخذ بهذا الرأى معناه إغفال ما للعوامل التاريخية والسياسية والاقتصادية من التأثير فى تكوين الفنون الشعبية وتكييفها .

ومما لا شك فيه أن الشعوب تتفاعل بعضها مع البعض الآخر بالوسائل الإقتصادية ويكون من نتيجة هذا التفاعل أن تتبادل السلع وتقتبس العادات فتتأثر بذلك الفنون الأصلية وتتطور تدريجا فى بطء أو فى سرعة إلى فنون مختلفة يختلف قدر ما فيها من الشوائب الداخلية تبعا لقوة المؤثر الخارجى وما لا يحصل نتيجة للتفاعلات الاقتصادية السلمية قد يأتى نتيجة لغزو حربى أو سيطرة سياسية . ويمكن للباحث أن يجد أثر هذه التفاعلات فى الفنون المصرية .

وتظهر الفنون الشعبية فيما يبتكره الفنان الشعبي من الأشياء التي لها صلة مباشرة بحياة الناس وطرق معيشتهم ، ومن هذه الأشياء قطع الأثاث المختلفة التي أبرز أمثلتها عندنا (الطبلية) والصندوق الخشبي المعروف ذو الألوان البهيجة الذي لا زال إخواننا في الريف يحرصون على اقتنائه ، وهو يذكرنا بالصناديق التي وجدت على قبور قدماء المصريين مما يدعو إلى الظن بأنه قطعة من الأثاث شقت طريقها إلينا هذه الآلاف من السنين .

والسلال والمراحين والمراوح التي لا زال أبناء الصعيد يصنعونها من الخوص والقش تشبه في ألوانها وأشكالها ما كان يصنعه القدماء منها ، وما زالوا يصنعونها بنفس الطريقة بل يختارون لها الألوان بعينها .

وعقود الخرز الجميلة والحليات المعدنية الطريفة التي تتزين بها السيدات في الوقت الحاضر تسترعي النظر لما بينها وبين الحليات الفرعونية من شبه واضح يجعلنا نعتقد في انحدارها الينا من أصل قديم .

والآنية المصنوعة من الفخار ، على اختلاف أنواعها ، كالزير والقدر والبلاصي والقلة — كل هذه قد ارتبطت بالبيت المصري أجيالا متعاقبة حتى أصبحت بحق من مميزات الفن الشعبي في مصر .

وعند ما نتكلم عن القلل المصرية لا ينبغي لنا أن ننسى (شبابيك القلل) فلقد وجد الفنان الشعبي فيها مجالا للتفنن والابتكار ، وفي دار الآثار العربية مجموعة كبيرة من هذه الشبابيك بها نقوش غاية في الدقة وجمال التكوين وهي أشبه ما تكون في شكلها بقطع الدنتلا .

ومن هذه الأشياء أيضا الحصير ذو الزخرفة الهندسية الملونة بالألوان الساذجة المرحة التي تطيب بها النفس وترتاح لها العين ، والحصير فراش للأرض يلائم طبيعة البلاد لسهولة تنظيفه مما يعلق به من التراب ولعدم احتفاظ مادته بحرارة الجو في الصيف .

وفي الريف يقوم الفلاحات بعمل (طواقي) للرجال ومناديل للرأس للسيدات يطرزنها بوحدات هندسية وغير هندسية وهي تمتاز ببساطة الفرزة وحسن التنسيق .

هذه بعض لأمثلة لما أخرجته يد الفنان الشعبي لمواجهة مستلزمات معيشته . على أن هناك علاوة على ذلك مناسبات قومية وتقاليد جرى عليها الناس في مواسم خاصة أتحت هي الأخرى للفنان الشعبي فرصا للإنتاج الفني ، ففي مولد النبي تصنع عرائس من الحلاوة وتكسى بالورق الملون وفي رمضان تستخدم فوانيس محلاة بالزجاج الملون ، فعرائس المولد من الفنون الشعبية المصرية الرائعة ، إذ أن في إنشائها تجريدا فنيا يسترعي النظر وأن في ملبسها المصنوع من الورق أناقة ورقة وأنوثة تليق بالعروس حقا وهي في جملتها تجذب النظر وتثير الشعور بالإعجاب .

أما فوانيس رمضان وكانما يعرف الغرض الذى كانت من أجله تستعمل ففيها تفنن فى الأشكال والألوان ومن منا لم يستهوه منظر مجموعة منها مضاءة فى ليل حالك وهى تتأرجح فتختلط لأضواء الملونة فتبعث فى النفس السرور والانتعاش .

ومن هذه المظاهر الاجتماعية رجوع الحجاج وما يتبع ذلك من إعداد واجهات المنازل لاستقبالهم . فترى الأسد مشدودا إلى محلة فى الصحراء ، وترى الفارس شاهرا سيفه ، والجمل يحمل الهودج على ظهره وغير ذلك من الصور التى توحى بمعانى القوة والشهامة والنصر ، ولا يخفى ما لارتباط هذه المعانى بما يلقاه الحاج من مشاق السفر ووعورة الطريق .

ولست أبغى من هذه العجالة أن أتكلم عن الموسيقى الشعبية ، فهى من الفنون التى لم تتأثر بالدرجة التى تأثرت بها الفنون الشعبية الأخرى نتيجة للتفاعلات التى سبق ذكرها ، ولكنى أود أن أضيف إلى ما ذكرت بعض الآلات الموسيقية الشعبية (كالدربكة) الطبلة البلدية والأرغول المصنوع من القاب والربابة جوز الزاوية فى مجالس الربابة المعروفة ، وكلها من صنع الفنان الشعبى ابتدعها لحاجته إليها ، فجاءت أصواتها متفقة مع طبيعة موسيقاه الشعبية .

كل هذه الأشياء التى ذكرنا وغيرها هى من مبتكرات الفنان الشعبى نفسه ، فهو لم يكن مقلدا ولكن مبتكرا يغالب الطبيعة وتغالبه ، ويكيف موادها بقدر ما تطاوعه الآلات الأولية التى ابتكرها هى الأخرى ، وهو يختار لهذه المواد الأشكال والأوضاع التى تحقق أغراضه وتعبر عن الموضوع الذى يعالجه فتخرج القطعة من بين يديه ناطقة بمختلف المعانى والعواطف ، مليئة بالأحاسيس يتجلى فيها مبلغ تأثره بالفكرة . وما التجريد وما التحريف والمبالغة التى نشاهدهما فى الفنون الشعبية إلا نتيجة لتغلغل الفكرة وثبات العقيدة .

والفنان الشعبى لا يقلد الطبيعة فى أشكالها وأوضاعها ، بل هو يوضح المعانى ويعبر عن الوجدانات المختلفة ، فاذا استخدم الطبيعة لهذا الغرض فانما يستخدم من عناصرها وأشكالها وأوضاعها مادة يودعها من ذكرياته وأحاسيسه المختلفة مايجعلها حقيقة ملموسة شاخصة أمامه ، لذلك امتازت الفنون الشعبية بالبساطة التى جاءت نتيجة لعدم التقيد بمظاهر الأشياء الطبيعية .

كل هذه الفنون بمزاياها التى ذكرنا رغما عن اتفاقها مع بيئتنا وعاداتنا وتقاليدنا ومزاجنا عاقها عن التقدم والاستمرار والرقى عوائق جمة ، فلقد تقدمت العلوم وكثرت الاختراعات الحديثة حتى أمكن الاستعاضة عن كثير مما كان يقوم به الفنان الشعبى بأشياء أخرى هى أسهل استعمالا وأقرب الى تحقيق غرضه وقد تكون أكثر إمتاعا له من كل النواحى إلا الناحية الفنية . وليس معنى هذا أن كل السلع الحديثة خالية من عوامل التجميل والحساسية بالفن ولكن كثرة الإنتاج وتعدد المصانع والمراحات الاقتصادية جعلت الناحية الفنية فى السلع تتضاءل إلى حد كبير أمام أصول التجارة ومستلزماتها التى لها الكسب بكل الوسائل دون

مراعاة لأى اعتبار آخر لذلك انزوى الفنان الشعبي وهزلت الفنون الشعبية ولم يعد يتوارث الأبناء صناعة الآباء وانصرف الناس إلى تقليد الفنون القديمة يشكلون العاج وسن الفيل بأشكال فرعونية قديمة كقطع الزينة وأيد للمنشات، ويصنعون قطعا منوعة من القماش تقليدا لما وجد منقوشا فى قبور الفراعنة وينقشون النحاس وغير ذلك فنشأت صناعات فى خان الخليلى أساسها تقليد الفنون الفرعونية والقبطية والإسلامية هى أقرب ما تكون إلى مسخ تلك الفنون منها إلى فنون شعبية .

ولقد طغت المدنية الأوروبية على البلاد المصرية بسبب سهولة المواصلات وإيفاد البعثات وغير ذلك من الأسباب وامتلأت الأسواق بالواردات الأجنبية ، فأعجبنا بالأجنبي فى كل شيء . وقلدناه فى كل شيء . وأصبح نفر منا يباهى غيره بمبلغ ما وصل إليه من التقليد . قلدنا الأجنبى فى ملبسه وفى مسكنه وفى طريقة معيشته . على الرغم مما بين جونا وجو بلاده . وعاداتنا وعاداته ، من اختلافات شديدة . وسلم نفر منا أطفاله للمدارس الأجنبية ينشؤونهم نشأة بعيدة عن أن تكون مصرية قومية . فلم نعد نعير أعيادنا القومية الأهمية التى تتفق إيماننا بها ، وتحسنا لها ، ولم نعد نعتز بقوميتنا كما كان يعتز بها آباؤنا الأولون .

ولسنا ندعو من وراء ذلك ، إلى عدم الأخذ إطلاقا بأساليب المدنية الحديثة ، أو إلى عدم الاستمتاع بمخترعات العلم الحديث . بل إن الواجب علينا أن نعمل على كشف المواهب الفنية الدفينة . وتعهدها . لكى تنمو وترتقى . حتى تكون حاجياتنا متفقة مع بيئتنا وتقاليدنا ومزاجنا وقد نصل إلى هذا الغرض بالوسائل الآتية :

أولا — الاهتمام بالأعياد القومية والمناسبات الوطنية كما يفعل الأجانب فى أعيادهم ومناسباتهم ، ولكن بطريقتنا نحن لا بطريقتهم هم . فان الذوق لينفر من أن يحتفل بموسم شرقى مصرى صميم على طراز أجنبي غربى ليس بينه و بينه صلة ولا سبب .

ثانيا — تكوين متحف يجمع أمثلة من الفنون الشعبية التى اندثرت أو التى فى طريقها إلى هذه النهاية يتردد عليه أفراد الشعب عامة ، والصناع بوجه خاص فيعملون على إحياء ما مات من تلك الفنون وعلى إنعاش ما زال منها باقيا .

ثالثا — تعهد الفنون الشعبية . واحترامها من طبقات الخاصة والهيئات الفنية التى عليها الإشراف على الفنون .

رابعا — القيام بدعاية واسعة النطاق لتعويد النشء الاعتزاز بقوميته والحفاظ لها ، حتى يقول كل مصرى بلسانه وبقلبه القول المأثور : (لو لم أكن مصريا لوددت أن أكون مصريا) .

أحمد شفيق زاهر

مدير مدرسة الفنون الجميلة العليا